انَّ الحياةَ عبر

(خطاب لفتى الحسناء القاه في حفلة جمعية تهذيب الفتاة السورية في الشويفات)
في ١١ ايار سنة ١٩١٠

عبرٌ كلها الحياة - يا اخواني ويا سيدات - الحياة كلها عبرٌ. عبرٌ تتلى علينا في كل يوم ونحن بها قلما نعتبر. عبرٌ تتلوها افواه الحوادث وتدلّ عليها المشاهد ويبرهنها لسان حال الموجودات ونحن قلما نفتكر الا بما نراه مباشرةً منها وما نسمع به عَرَضاً عنها. وقلما نهتم بالبحث فيها او بالتأمل او بالامعان. بل كثيراً ما نكتفي بما يقع عليه النظر وما يبلغ الاذان. دون ان نتساءل من اين والى اين او كيف ومتى

تعودنا ان ننظرَ الشيء دون ان نتأملَ فيه واذا تأملنا او افتكرنا في التأمل نكتفي غالباً بحاله الحاضرة ونتغاضى عما كانت عليه وما ستؤول اليه. وهكذا نمرُّ امام الشيء ونرمقه بالبصر وقلما نتذكر ما فيه او نتصوَّر مستقبله

نمرُّ بالشجرة الكبيرة مرّاتٍ عديدة وتحتَ اغصانها الباسقة في الجوّ الكثيفة الظلّ وقلما نفتكر بانها نبتة بزرة صغيرة طُمرت في التراب اياماً ولما ابتلَّت برطوبة الارض انفرخت وتعاهدتها يدُ العناية فنمت ومرَّت عليها الايام فكبرت وربما تتفرها السوس فتقع

ونلهو بالزهرة الجميلة ساعات تنشق رائحتها الطيبة وتمتع العين بجمالها الرائع وقلما نفتكر في كيفية اعتراء قشرة بزرتها وامتصاصها الغذاء وتلونها البديع

ونجتازُ النهر او نجلس على ضفته نستنشق الاذان بخريره ونُبهج الفؤاد بتلألؤ مائه وقلما نفتكر في النبع او في نهاية سير الماء

ونسير على شاطئ البحر نراقب المدّ والجزر ونلاحظ تعاقب الامواج وتلاطمها وقلما نقول لماذا هذا

يهبّ علينا الهواء وتمطرنا السماء تشرق الشمس علينا وتغيب عنا وينير لياليَنا القمر هلالاً فبدراً ويطول النهار ويقصر وقلما نتساءل عن سرّ ذلك

ندخل القصر ونتفقد مخادعه وصاعاته ونتعهد اثاثه ورياشه وقلما نفتكر باضي مكانه او بالمواد المؤلفة منها موجوداته

نقف على اطلال العمران ونشاهد الخرائب المتراكمة فيشمئز منها النظر وتنقبض النفس وقلما نفتكر بايام عزها وبانها كانت عامرة آهلة

زائر قلعة بابك يلتهي بالانقاض عن تذكر مجده شيدها وزائر بارز تلهيه عظائمها عن التفكر في ما ربما تأول اليه من الخراب

وكذا تعامل الولد معاملة صبيانية محضاً كأنه سيظل صغيراً الى الابد وتنسى ان الصغير سيكبر

كما اننا اذا رأينا الآنسة المتفننة او السيدة المترفة لابسة ثوباً بديعاً مخرّماً ومخرّجاً على اخرزي ومهندمة شعرها بصنع جميل فقلما نتساءل عما صرف من الوقت في هذا السبيل

وهكذا نقيس المسموع على المنظور

نسمع بانسان عظيم ملأت شهرته البلاد فنتمثله بعظمته دون التفكر في ما اتاله اياها او في ما عاناه لبلوغها من المتاعب · ومثله العمل العظيم نتمثله بحاله الحاضرة وقلما نفتكر بما كان وما سيكون

على ان نشوء الاعمال كنشوء الانسان واحوالها تقاس على احواله من وجوه عديدة فكما ينمو هو بالتدريج شيئاً فشيئاً هكذا هي ايضاً تنمو وكما يعاني هو من جواذب ودوافع ناموس تنازع البقاء هكذا هي ايضاً تعاني ·

ومن الغلط المضر الاكتفاء بحاضر الامور دون الرجوع الى ماضيها والنظر الى مستقبلها . قبل الحكم عليها الحكم المطلق

فكم تقدرون عدد الذين افكروا في كيفية تأسيس جمعية تهذيب الفتاة السورية وفي ما تعانيه من المشقات في سيرها وما تستطيع عمله في المستقبل ما دامت الاحوال موافقة لها ؟

انا اقدرهم بعدد قليل جداً لان الانسان ما تعوّد بعد ان ينظر بالبداهة الا الى الحاضر . وبناء على هذا الامر أسألكم ان لا تنظروا الى هذه الجمعية من حيث هي اليوم فانها لا تزال اليوم في عهد التأسيس في مهد الطفولية . بل توسعوا في النظر اليها وامعنوا في مستقبلها فتأكدوا انها بالتعاضد والاجتهاد ستخدم البلاد اشرف خدمة . ستعمل على تهذيب الفتاة السورية المستعدة وكفاها بهذا العمل فضلاً وفخراً . ستكون شيئاً مذكوراً في تاريخ بلادنا المحبوبة . ولكنا يلزمها شهود واعوام لتتمكن من ان تكون هذا الشيء

فتوسعوا بنظركم اذاً . وعودوا معي هنيهة الى التاريخ . فاروي لكم شيئاً مناسباً (للاعتبار به) عن جمعيتين نسائيتين عظيمتين . نشأت الاولى منها في الغرب من مئتين وتسعين سنة ونشأت الثانية في الشرق من ثلاثين . ولا تزالان الى اليوم سائرتين في سبيل النجاح المستمر

مئتان وتسعون سنة مرّت على الاولى وهي آخذة بالتقدم والانتشار فكانت شأن كل عمل تارة تقف وطوراً تسير حيناً تتقهقر واحياناً تتقدم . وما زالت تجاهد في سبيل الحياة بنشاط واخلاص حتى بلغت هذا العمر الطويل ونالت بنآتها العظيمة من المكانة في العالم ما لم يرو لنا التاريخ عن مثله تماماً منذ تكوّن الانسان ولو شئنا ان نعدد الفوائد العظيمة التي استفادها منها البشر لما استطعنا الى ذلك سبيلاً لان ذلك مستحيل

اديارٌ عديدة، فخمة كبيرة. والوف من الراهبات العاملات منتشراتٌ في كلّ الارض بين المتمدنين والمتوحشين ينفحن البشرية في كل ثانية بما تتعزّز به دعائم الانسانية فيربين اللقطاء والايتام ويهذبن الاحداث ويعلمنهم ويمرضن المرضى ويجدن الى الفقراء ويبثثن روح الديانة والتقوى على ما تعلمن حتى الصنائع ايضاً يعلمنها لطلابها ولا يدخرن وسعاً في تخفيف شقاء الناس

هن ولا ازيدكم تعريفاً بهن. هن ملائكة الرحمة — هن اخوات المحبة — المعروفات عندنا بالراهبات الاغوستينيات وجميعتهن شبه رهبنة تقريباً من حيث تألفها من عذارى كريمات نذرن البتولية عاماً فعاماً ووقفن نفوسهن ما شئن لخدمة الضعفاء والمساكين

فهذه الجمعية او الرهبنة كما شئتم سموها لم تظهر الى عالم الوجود عظيمةً كما هي اليوم دفعةً واحدة بل بدأت صغيرة ولم يخطر على بال مؤسسها العظيم القديس منصور دي بول انها ستبلغ ما بلغت اليه. كانت تنحل في عامها الرابع عشر. ولم يثبت رئيس اساقفة باريز قوانينها الا بعد عشرات من الاعوام ولا تسلموا عما عانته في سيرها من المتاعب والمصاعب. لا تجهلوا عما اضطهدها به اعداء الخير. احتقرها الناس اولاً ونبذوها. ولما انتبهوا الى غلطهم ندموا على الماضي. وعرّضوا عنه باحترامهم اياها واقبالهم عليها حتى انسوها ذلك الاحتقار والاهمال

وبديهي انها لم تستطع اتيان كل ما جاءت به للخير العام الا بالمناصرة الخارجية والمساعدة العمومية ولم تقوَ على الثبات الا بالاجتهاد والاتفاق

ومرّ ثلاثون عاماً على الجمعية الثانية واعني بها زهرة الاحسان الجمعية الوحيدة في الشرق التي عاشت هذا العمر بهيئة الجلس اللطيف بلا ملل. فخر

سيدات بيروت الاثرة كبيات ذات المدرسة الكبيرة والرهبنة الكريمة

فهذه المدرسة التي صارت تعلم في مدرستها مئتين وثلاثين تلميذة في كل عام منهن سبعون يتيمة تعولهن بلا بدل فتكسينهن وتقوتهن وتعلمهن وتقدم لهن جميع احتياجات التعلم مجاناً لوجه الله والتي صارت ايراداتها السنوية تبلغ الالفي ليرة • ولها صرح كبير في بيروت ومصيف جميل في لبنان • العازمة على بناء كنيسة وتشييد مبتم

هذه الجمعية بدأت صغيرة ككل جمعية ولم تجتز مسافة هذا العمر على بسط الراحة والرفاه بل قاعتها على الشوك والصوان وقاست مشقات عديدة الى ان تيسر لها الوصول الى مقامها الحالي ولولم تكن مؤسستها الفاضلة الحاجة مريم جبشان قد برهنت على استعدادها واخلاصها بتأثر غراء قبل انشائها ولو لم تكن رئيستها المحسنة الشهيرة السيدة املي سرسق اهلاً لثقة الناس بها • ولو لم تكن بقية الاعضاء غيورات مجتهدات • ولو لم يتخذن جميعهن مبدأ انكار الذات شعاراً لهن ولو لم يثبتن في وجوه المزدرين بالمشروع والباخلين عليه ثبات الابطال • ولو لم يقبل عليهن الناس بالتنشيط والمساعدة تجاه ما عانينه من تثبيط البعض لهممهن وقبض ايديهم عن مساعدتهن لولا كل ذلك لما استطاعت زهرة الاحسان ان تصير كما صارت • ولكانت الطائفة قد حرمت المنافع التي استفادتها منها

فترون اذاً مما تقدم انه لا يستحيل على جمعية تهذيب الفتاة السورية ان تبلغ يوماً ما مقاماً عظيماً تستطيع به ان تفيد بلادها عظمى الفوائد • ترون ان هذه الجمعية تحتاج الى المناصرة والمساعدة لتصير قادرة على الافادة • ترون وجوب التوسع في النظر اليها بناء على ما يرجى من خيرها في المستقبل • وانها ما زالت مجتهدة في الشغل مخلصة في العمل ما دامت مستقيمة في السير ثابتة

في الجهاد فانها تفوز بعناية الله ومواآزرتكم فوزاً مبيناً يرجع النفع منه الى صميم قلب الامة

والامل عظيم بتأكيدكم اهابة الجمعية وباقبالكم على تنشيطها ومعاونتها وبتأكيدكم حسن استعدادها تأييداً لثقتكم بها . وهي باقدامها على هذا المشروع غنية عن المدح والاطراء . ويصح فيها قول ام لموئيل ملك مسا — اعطوها من ثمر يديها ولتمدحها اعمالها في الابواب —

تكلمت عن اخوات المحبة وزهرة الاحسان بما فيه عبرة لتهذيب الفتاة من حيث الجمعية . لان النتائج تكون بنسبة المقدمات والاسباب . وحيثما تماثلت هذه توازت تلك

بقي امر آخر تبادر الى ذهني بداهة عندما دعتني عمدة هذه الجمعية لاحادثكم في هذه الحفلة ارى فرصة مناسبة لابدائه الآن . فارجو الانتباه اليه

امر مؤكد ثابت لا رد عليه ولا جدال فيه . امر صحيح نرى نتائجه في كل وقت واضحة للعيان كالشمس في رائعة النهار

وهو أن الاستعداد الطبيعي في الانسان لا يبدو جليا الا بالتربية والتعليم والتهذيب ولا يقوى على الاستفادة والافادة بدون هذه الامور كما يقوى عليها بها . بل تذهب معظم قواه سدى ويتضرر ويضر اكثر مما ينتفع وينفع وهكذا ينال منه الضرر ويفوت النفع

فالفتاة السورية المتوفر فيها الاستعداد الطبيعي لتكون عظيمة في العالم او على الاقل لتحسن السير في سبل الحياة بمقتضى الحق والواجب . هي اولى بالاعتناء بها منها بالخاملة واحق بالتربية والتعليم والتهذيب ولو كان هذا من حق الجميع على السواء . لان ما يرجى منها لنفسها ولذويها وللامة لا يرجى من تلك ولا ينتظر . وليست القوى العظيمة كالصغيرة ولا المحدود كالشامل

ومن سوء حظ البشر ان القوى الطبيعية العظيمة كثيراً ما تتوفر بين الطبقة المتوسطة الحال التي لا يمكنها في كل وقت ان توفر من ايرادها ما تتمكن به من احسان تربية بنيها وتعليمهم وتهذيبهم في المدارس العالية وذلك خصوصاً بالنسبة لاشتداد سلطة العادات الاجتماعية عليهم . العادات المتلفة للمال اكثر مما تستلزم حقائق الاحوال . فضلاً عن كون الفئة الكبرى من الناس لا يمكنها ان توفر شيئاً كافياً لنفقات التعليم الابتدائي فكيف العالي

ومن هذا يتضح ان الامة السورية باحتياج شديد الى مثل هذه الجمعية لا سيما في هذا الوقت الذي لا يزال فيه جمهور غفير من البشر ينكر على البنات حق العلم ويضن بالليرة في سبيل تعليمهن ولو كان غنياً كبيراً واذا كان معظم الناس لا يزالون عاجزين عن كفاية صبيانهم مما يلزمهم من المعارف والاداب مع اعتقادهم بانهم اكثر استحقاقاً للعلم من بناتهم لما يرجى منهم من النفع فكيف نرجو ترقية الفتاة المستعدة المعسرة ولا مدارس مجانية عندنا ولا جمعيات للتعليم والتهذيب

صار عندنا من المتعلمين فئة كبيرة فصرنا باحتياج شديد الى متعلمات يوازي عددهن على الاقل عددهم . اقله ليستطيع المتعلم ان يجد له قرينة متعلمة . وان لم يكن ذلك لخير العموم فليكن لخير الافراد

وسلام على اليوم المقدس العظيم . اليوم الذي ترقى فيه بنات سوريا ترقي ابنائها . ويسرن سيرهم بنشاط في سبيل الرقي المستمر . سلام عليه وعلى الساعين والساعيات اليه . وعلى المساعدين والمساعدات اجمل سلام